

المولى إدريس الثاني مجمع العلم والشرف والولاية

• د. أحمد الأزمي

تكاد تجمع كتب التراجم والطبقات على شرف المولى إدريس الثاني (ت ٢١٣ هـ)، وعلمه وولايته. وقد وصفه وحلاه صاحب "سلوة الأنفاس" كآلآتي:

بركة فاس والمغرب وأماهما وحرزهما، وواسطة عقدتهما وفخرهما سلطان الأولياء، ونخبة الصلحاء والكبراء والعظماء والأتقياء، سيد الأسياد وقطب الأقطاب والأعجام (...).

الخليفة الأصعد الأكبر، والهمام الأنزه الأنوه الأنور، منبع الأسرار والأنوار واللطائف، وعنصر المجد والكمالات وسائر المعارف، عين أعيان الخلفاء والشرفاء، العلوي الفاطمي الحسيني الكامل، الحجازي الأصل، الزرهوني المنشأ والفصل الفاسي الدار والقرار، والوفاة والمزار، مانح الزائرين وسائر القاصدين بأسراره الربانية المحمدية، وبعقود الجمان والدر النفيس: أبو القاسم وأبو العلاء سيدنا ومولانا إدريس، المعروف بإدريس الأنور وإدريس الأزهر، وإدريس صاحب التاج وإدريس المثني، وإدريس الفاسي وهو ابن القطب الأشهر مولانا إدريس الأكبر الحجازي المغربي الزرهوني، ابن القطب مولانا عبد الله الكامل بن القطب مولانا الحسن المثني ابن أول الأقطاب مولانا الحسن السبط، ابن رابع الخلفاء وإمام العلماء والفصحاء والبلغاء، مولانا علي، وسيدة نساء الدنيا والآخرة مولاتنا

- فاطمة الزهراء البتول، بنت سيد الكونين وعروس الدارين، وشفيح الخلائق أجمعين، وممد الأولياء والأنبياء والملائكة وسائر المقرين، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله (ص)^(١).
- وهو الذي أسس رضي الله عنه، المدينة الكبرى التي هي مدينة فاس، سنة ١٩٢ هـ (صبيحة يوم الخميس غرة ربيع الأول)، ورفع يده عند إرادة الشروع في بنائها ودعا لها ولأهلها، وقال: "اللهم اجعلها دار علم وفقه، يتلى بها كتابك، وتقام فيها حدودك، واجعل أهلها متمسكين بالكتاب والسنة ما أبقيتها..."^(٢). فلم تزل دار علم وإقامة سنة بركة دعائه وبركته رضي الله عنه، وهي البركة التي جعلت مدينة فاس تمتاز على غيرها من غالب البلدان بعدة فضائل، منها:
- حلوله - رضي الله عنه - بوسطها، وناهيك بذلك من شرف وفضل، وبركة وفخر.
- كونها أسستها يد الأشراف، وبنائها على أيديهم، ولا يعرف على وجه المعمور مدينة عظيمة إسلامية عامرة بالعلم والدين أسستها يد بضعة نبوية طرية إلا هي، ولن تعدم بركة ذلك بفضل الله تعالى، ثم بعظيم جاه أحب خلقه إليه، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.
- وجود قبائل الأشراف فيها بكثرة، بحيث لا يكاد يوجد في مدينة من المدن مثل ما فيها منهم. وناهيك بها من فضيلة ومنقبة، لأن الأشراف هم زينة الكون وشرفه، ونجومه، وبهم تأمن البلاد والعباد من عموم البلايا وعظيم المصائب والحن.
- وجود أهل العلم فيها بكثرة، حتى قيل إنه ينبع العلم من صدور أهلها كما ينبع الماء من حيطانها، ويقال أيضا ولد العلم بالمدينة، وربي بمكة، وطحن بمصر، وغربل بفاس. وليس في المغرب مدينة يوجد فيها من أنواع العلوم وأصناف العلماء، مثل ما يوجد فيها.
- أنها محل الأولياء والصلحاء، وأولياؤها هم الأسد الذين لا يقدر أحد من الأولياء على مقاومتهم، حتى اشتهر أنهم يعملون في غيرهم ولا يقدر غيرهم أن يعمل فيهم، ببركة هذا الإمام الذي انتسبوا إليه، واستوطنوا بجواره.
- أنها تعرف عند الأولياء وأهل الله تعالى بالزاوية، كما نقل عن الشيخ الولي سيدي عبد الرحمان المجذوب.

(١) محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ج ١، ص: ٧١.

(٢) نفسه، ص: ٧٥.

- أن اجتماع الأولياء على الأمر المهم، يكون فيها، كما شهدت بذلك الكشوفات والمرائي، تأدبا مع سيدنا ومولانا إدريس، إذ هو إمامهم، والسبب في وصولهم إلى الإيمان فما بعده من الخصوصيات، وهم في صحيفته وميزانه.

- أنها دار المحبة والتعظيم لآل البيت وللعلماء والمنتسبين. وهؤلاء الطوائف الثلاث معظمون بها أكثر من غيرها.

- أنها لم تنزل من يوم بنيت دار الفضل والدين والسنة والجماعة، كما نقل عن الشيخ زروق أنه قال في بعض تعاليقه: " إن ثلاث مدائن بالمغرب أكثر الناس صلاة وديانة، وهي: غرناطة، وتونس، وفاس، قال نقلا عن ابن مرزوق - وفاس أكثر المدينتين المذكورتين صلاة ".

- أنها دار الخيرات والبركات والنعم الكثيرة المتواليات، وذلك ببركة دعاء بانيها لها بذلك، اقتداء بجدده (ص) في دعائه للمدينة، وسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه لمكة.

- أن سكانها أحد أهل المغرب أذهانا وأشدهم فطنة، وأرجحهم عقولا وألينهم قلوبا، وأكثرهم صدقة، وأعزهم نفوسا، وألطفهم شمائل وطبعا، وأقلهم خلافا على الملوك، وأكثرهم طاعة لولايتهم وحكامهم.

- ومنها أنه ورد في فضلها، حديث وجد على ما قيل - في كتاب دراس بن إسماعيل بخطه عن أبي هريرة مرفوعا: " ستكون بالمغرب مدينة يقال لها فاس، أقوم أهل المغرب قبلة وأكثرهم صلاة، أهلها قائمون على الحق، لا يضرهم من خالفهم، يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة ". وقد ذكر هذا الحديث صالح بن عبد الحليم في كتاب " الأنيس "؛ المعروف عند الناس بكتاب " القرطاس "، والشيخ أبو الحسن الجزنائي في كتابه " جني زهرة الآس "، والشيخ زروق في كناشه، وابن القاضي في " الجدوة "، وأبو عبد الله التلمساني في " المنهل الأصفى "، حاشية له على الشفا... وغيرهم كثير، وأقروه وتكلم فيه بعضهم من جهة متنه وآخرون من جهة إسناده، والصواب أنه: صحيح من جهة المعنى، ضعيف جدا أو باطل من جهة السند والمبنى، وكم له من شواهد تصحح معناه وتؤذي مضمونه وفحواه.

- أن أهلها في العقيدة على مذهب إمام أهل السنة والجماعة، الشيخ أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، فكانت عقيدتهم مطابقة لعقيدته التي هي عقيدة الصحابة، فمن بعدهم من أكابر العلماء والفقهاء، والصوفية والأولياء.

- أنهم متمذهبون بمذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه، ويقرأون بقرأة نافع المدني، فكانوا بذلك حائزين لسر المدينة المنورة.
- أنها قاعدة بلاد المغرب وقطبها ومركز دائرتها قديما وحديثا، قال سيدي ابن عباد في رسائله: " فاس أم البلاد المغربية وواسطة عقدها، ومنها يسري الصلاح والفساد إلى غيرها...".
- أن ملوكها وملوك غيرها من سائر الأقطار المغربية، لا يكونون في الغالب، إلا من الأشراف آل البيت رضي الله عنهم.
- أنه أقبر بها، جماعة كثيرة لا تكاد تحصى، ولا تكاد توجد في غيرها من العلماء والأولياء والصالحين الأخيار، والأقطاب والأشراف آل البيت، حتى قيل: " إنه لا يكاد يوجد شبر منها إلا وهو معمور بولي الله عز وجل... " ^(١).
- هذا الإمام، رضي الله عنه، قد جمع الله تعالى فيه ما افترق في غيره من الخصال الحمودة كلها، والمزايا بأسرها، فكان شريفا من آل البيت المصطفى صلى الله عليه وسلم، عالما عاملا، تقيا دينا، زاهدا ورعا، وليا صالحا، عارفا إماما، عدلا يحكم بين الناس بالحق، ويقضي فيهم بالشرع، لذلك أطبق أكابر العلماء وجميع الأولياء وسائر الناس من جميع البلدان والأقطار والنواحي والأمصار على حسن الثناء عليه، وتعظيمه وقصد زيارته والتبرك به وبآثاره.
- وقال العلامة ابن زكري في شرح همزيته ما نصه ^(٢): " وليحذر القائل، للنصيحة كل الحذر، أن يرتاب في خصوصيته، ويشك في ولايته، فينفي بذلك الحق عن أهله، ويكذب ذوي الصدق المعتقدين الذين أخبروا بذلك، فيستوجب المقت والطرد".
- وفي بعض تقايد الشيخ المسناوي ^(٣) بخطه، ما نصه: " الحمد لله، كان شيخنا الإمام سيدي عبد القادر الفاسي - رحمه الله ورضي عنه - يشير كثيرا إلى مولانا إدريس بن إدريس باني فاس ويقول: أجمع أهل البصائر على أنه بفاس وأنه من أهل التصريف. قاله ولده سيدي عبد الرحمان في تأليفه المسمى " تحفة الأكابر بمناقب الشيخ عبد القادر ". وكان أيضا بعض كبار الأئمة العارفين ممن أدركناه، يشير إلى خصوصيته بما أدركه بنور بصيرته، وما يجده في نفسه عند مروره بمزارته، تلقت ذلك ممن سمعته منه. قاله كاتبه محمد المسناوي كان الله له "

(١) هذه الفضائل كلها أوردها صاحب " سلوة الأنفاس"، في الجزء الأول من ص ٧٦ إلى ص ٨٠.

(٢) أورد محمد بن جعفر الكتاني اسم هذا المصدر في ص ٨١ من الكتاب المذكور.

(٣) نفسه، ص: ٨٢.

وفي "الدر النفيس"، ما نصه: "وقد ذكر لنا عن شيخ الإسلام، يعني سيدي عبد القادر الفاسي، أنه قال: "إن إدريس بن إدريس من أهل الخصوصية والتصريف، أخبره بذلك أهل البصائر. وفيه أيضا: إن هذا الإمام، من أهل القطبانية، وممن يتصرف حيا وميتا في عالم الملك والملوك، كما هو شأن الخواص والأكابر" (١).

ويذكر عن الشيخ سيدي أحمد التجاني - رضي الله عنه - أنه كان يقول "لو علم أهل فاس قدر مولانا إدريس، لذبحوا عليهم أولادهم". ويحكي أيضا عن بعض الأولياء من المتأخرين أنه كان يقول فيه (ر) "بأنه آدم الأولياء"، ويقول: "لو قدر أن يكون بعد النبي صلى الله عليه وسلم نبي، لكان مولانا إدريس نبيا" (٢).

وقال في "الدر النفيس": "بدايته - رضي الله عنه - هي نهاية غيره من الأولياء، لأنه حاز عناية النبوة وعناية الولاية. ومن جمع بين هذين الوصفين، حاز غاية الكمال ونهاية الوصال، قال: بل احتوى - رضي الله عنه - على ثلاثة أوصاف: العلم والنسب والولاية..."، وقال أيضا في موضوع آخر ما معناه ببعض زيادة: "إن هذا الإمام - رضي الله عنه - هو سلطان الأولياء، ونخبة الأصفياء، وصاحب المدد الحمدي الذي لا يعدله مدد، والفرد الأحمد الذي لا يوازيه أحد..." (٣).

وذكر العلامة ابن زكري في شرح همزيته أنه "محل ظهور البركات الكثيرة والاستشفاء وإجابة الدعاء" (٤).

كما ورد في "تحفة الإخوان في التعريف بسادتنا أهل وزان"، أن بعض العلماء "كان إذا ضره الفئران في بعض كتبه شكاهم لهذا القطب الكامل، فيكف الله عنه شرهم، ويرفع عنه ضررهم.. قال: "وأكابر الأولياء يأتون لحرمة من أقصى البلد زائرين، وبقرابته من رسول الله (ص)، مستشفعين ومتوسلين حشرنا الله في زمرة وأمانتنا على محبته... آمين" (٥).

وثبت عن غير واحد من الأئمة الكبار، والأولياء الأبرار، أنهم كانوا إذا ذهبوا إليه لزيارته، يتأدبون غاية الأدب بين يدي مهابته، حتى أن منهم من كان لا يدخل قبله أدبا وتعظيما، ومنهم من لا يدخل حرمة، تشريفا له وتكريما (...). ومنهم من يقدم إليه

(١) نفسه، ص: ٨٢.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص: ٨٣.

(٤) نفسه، ص: ٨٤.

(٥) نفسه، ص: ٨٤.

حافيا، متذللا خاضعا، باكيا، منكسرا، خاشعا، ومنهم من كان يمشي إليه على ركبتيه ويديه، إلى أن يصل إلى ضريحه بين يديه^(١).

إذا كان من المسلم به أن الإسلام قد نجح في صبغ الحياة الفردية والجماعية على السواء، بصبغة أخلاقية واضحة كما نصت على ذلك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فإنه مما لا شك فيه أن هذا الطابع الأخلاقي زاد ترسعا وتمكنا في المجتمع المغربي على الخصوص بعد قيام دولة الأدارسة التي جمع إمامها إدريس الثاني بين النسب الشريف والولاية والصلاح والعلم، كما علمنا، وهو أمر ساعد في تقديرنا على تذليل السبيل أمام تغلغل الفكر الصوفي وانتشاره وتجرده بالتدرج، ليتخذ من رجالات التصوف نماذج أخلاقية، ومن عادات الصوفية تقاليد معاشة وسننا متبعة. إن نظرة خاطفة إلى مجتمعنا الحديث، بل المعاصر تجعلنا نقف على بعض العادات "المترسخة" في حياتنا الفردية أو الجماعية التي تعكس في حقيقتها تقاليد رسختها في الأصل تلك النماذج الصوفية منذ زمن بعيد (أفراح عائلية: العقيقة، الإغذار...)، مواسم المولد النبوي الذي تبدو فيه الكثير من البصمات الصوفية: البوصيري شاعر البردة والهمزية، صوفي وتلميذ لابن عطاء الله السكندري الشاذلي الطريقة، "أحاديث المولد" التي لم يكف الفقهاء ونقاد الحديث عن التنبيه على "ضعف" العديد منها. ومع ذلك فالوضع مستمر وفق تلك التقاليد الصوفية في الغالب. ويكفي أن نلقي نظرة على كتاب الاعتصام للشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)^(٢)، وهو يتتبع نشأة بعض العادات الصوفية المستحدثة في عصره، ونقارن بينها وبين بعض ما أصبح معهودا بيننا في أوساطنا العائلية، لنذكر أن هذا المعهود اليوم بين المغاربة، ليس في أصله إلا تلك العادات التي شهد الشاطبي نشأتها مع الجماعات الصوفية.

ورغم أن الفكر الصوفي حوَصر واضطهد سياسيا وفكريا، في عدد غير قليل من المحطات التاريخية، فإنه تمكن من الصمود والاستمرار، والسر في ذلك أنه يتكيف مع البيئة الإسلامية، ويتغلغل في أعماق الحياة الشعبية، بل وأن يأخذ أحيانا كثيرة زمام المبادرة والتأثير، على المستوى الاجتماعي والسياسي. وقد قدم التصوف الطرقي بالمغرب، أمثلة حية، ونماذج متميزة في هذا المجال، حتى صار التصوف المناخ الذي يتنفسه الجميع، والمظلة التي يستظل بها الخاصة والعامة.

(١) نفسه.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي، الاعتصام، نشرة رشيد رضا، بيروت (د. ت)، ج ١، ص: ٢٦٤ وما بعدها.

وإذا حاولنا أن نضع التجربة الصوفية في إطارها المغربي، فإنه لا مناص، من الانتباه إلى دور بعض العوامل التي طبعت تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي والفكري بطابع "الخصوصية" التي ستعكس آثارها بالضرورة على تجربة الصوفية. ذلك أنه بالرغم من أن المغرب، ربما بسبب بعده الجغرافي، قد صار منذ وقت مبكر، ملجأ للعديد من الفرق الإسلامية (الخوارج، المعتزلة)، إلا أن بعده الجغرافي عن المشرق، مكنه من أن يبقى بعيدا عن الخوض في الخلافات المذهبية، وتطغى عليه التزعة العملية بما تعنيه من عزوف عن الخوض في المشكلات النظرية وإعطاء الأولوية للتنظيمات العملية والإجراءات التشريعية^(١). وقد كان لسيادة المذهب الفقهي المالكي، بجانب تصوف الجنيد السني والكلام الأشعري التوفيقى الأثر الكبير في تشكيل التزعة العملية الطاغية على الإنتاج الفكري المغربي. ومهما تكن عوامل انتشار وسيادة تلك التوجهات الفقهية والأخلاقية والفكرية، فإن الجامع بينها يتمثل في التشديد على السنة والإجماع ونقد الخروج عن الجماعة (...). وإذا أمكن تقريب بعض الخصائص الفكرية السائدة بالأندلس إلى ما عرف من ذلك بالمشرق، فإن المغرب، خاصة في مجال الفكر الصوفي، ظل متميزا حتى عن الفكر الصوفي الأندلسي، بما ترسخ فيه من نزعة عملية - أخلاقية، ومن ابتعاد أقطابه عن الشطحات المغالية ومن دعوتهم دائما، أن يكون "الجسد في الحانوت والقلب في الملكوت"^(٢).

إلا أن غلبة ذلك الاتجاه المكرس لمعاني الوحدة والإجماع والتمسك بالأصول في التجربة المغربية، لا يعني أبدا تكريسا لنظام مركزي في تسيير شؤون الدولة وحياة الجماعة، فالدولة الإسلامية نفسها كانت أشبه ما تكون بسلطة "لامركزية"، تلعب دور الحكم، ضمن التوازنات القبلية والاجتماعية الأخرى. في ظل هذه اللامركزية يجب أن نفهم مساهمات فئات مختلفة ومؤسسات متنوعة في الحركات الاجتماعية، سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي (دور القبيلة، دور مؤسسة الأوقاف، دور العلماء...). لقد ظلت الدولة المغربية ظلت دوما رمزا لذلك التوازن المطلوب بين الساكنة القبلية، ولم تكن مهمتها هذه تقتضي منها، خاصة على مستوى المهام العسكرية والاقتصادية

(١) عبد المجيد الصغير، من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب، ضمن كتاب: الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب (دراسات تاريخية مهداة للأستاذ إبراهيم حركات)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٩٩٧، ص: ٢٧٣.

(٢) عبد المجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين ١٨ و ١٩، الدار البيضاء، دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٤، الفصل الثاني على وجه الخصوص.

والتعليمية والصحية، أن تكون وحدها صاحبة القرار في ذلك، بل كثيرا ما كانت "الجماعة" في وجهتها الجغرافية مسؤولة مباشرة عن تدبير شؤونها الاجتماعية والاقتصادية وأحيانا العسكرية أيضا.

من هنا اكتسبت التجربة الصوفية بالمغرب أهميتها، كجزء من التركيبة الاجتماعية، ثم كـ "مؤسسة"، في شكل زاوية أو طريقة، يلجأ إليها تفاديا لكل اختلاف قبلي وحسما لكل صراع فتتوي يخص تدبير شأن من شؤون الجماعة خاصة في البادية المغربية^(١).

أما على الصعيد التاريخي والمعرفي المحض، فإن ارتباط التصوف بالتاريخ المغربي مسألة لا يجادل فيها أحد، إذ تمكنت البيئة السنية العملية بالمغرب، من أن تطبع تصوفها بطابعها الخاص، وأن يسير التصوف بذلك، جنبا إلى جنب مع المذهب المالكي، بعيدا عن الغلو في الفكر والتطرف في السلوك، مما جعل علال الفاسي، يصحح مواقفه السلفية القديمة، ويؤكد معترفا أنه "مما امتاز به التصوف المغربي أن معظم رجاله ودعاته، من أهل العلم بأصول الدين وفروعه، ولذلك فهم يعرفون كيف يكيفون آراءهم، وقلما تجدهم مصطدمين مع العلماء، كما وقع في المشرق العربي، وما وقع من اضطهاد بعض المتصوفة، إنما كان لأسباب سياسية محضة. والتصوف المغربي، إلى جانب الفقه المالكي، له الأثر الفعال في توجيه كل الأفكار والسياسات التي جرت ببلادنا. فالفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره"^(٢).

ومن الملاحظات التي يجب شد الانتباه إليه بخصوص "الحدث الصوفي"، أن الفكر المغربي في خصوصياته العملية المتميزة، لم يعرف انتشارا خارج حدوده الجغرافية إلا عبر رحلات رجال التصوف. فحيث غابت شروط التواصل الحضارية وتقلبات العلاقات والروابط بينه وبين غيره لشيوع الانحطاط وارتفاع سدود العزلة؛ في ظل هذا الوضع، وبالرغم منه، برز التصوف المغربي كـ "عامل موحد، خاصة بين شعوب أقطار إفريقيا الغربية، وكثقافة مشتركة تسمح، على الأقل، بالإحساس بالتواصل وبوحدة الانتماء. وهل يمكننا الحديث عن شيوخ مثل الشاذلي والبدوي وزروق والتجاني، إلا كثقافة أو جسور ربطت المغرب بسائر أقطار الشمال الإفريقي، وبذلك يكون التصوف المغربي قد ساهم زمن الانحطاط وارتفاع سدود القطيعة في الإبقاء على روابط روحية فكرية، لاشك

(١) عبد المجيد الصغير، من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب، م. س، ص: ٢٧٤.
(٢) علال الفاسي، التصوف الإسلامي في المغرب، إعداد عبد الرحمان بلعري الحراشي، منشورات مؤسسة علال الفاسي، مطبعة الرسالة، ١٩٩٨، ص: ٢١.

أما أقيقت لى تلك الشعوب المسلمة على البقية الباقية من الشعور بالتواصل، ومن "الإيمان" أو الحلم بالوحدة المفقودة على سائر المستويات الأخرى^(١).

ومن الأمور الأكثر لفتا للانتباه، والتي يجب التذكير بها، أن نشاط التصوف المغربي وإشعاعه جنوب الصحراء، قد استطاع أن يشكل حزام أمن مشتركاً بين إفريقيا السوداء المسلمة وبين دول المغرب العربي قاطبة، ضد الاجتياح الاستعماري المعاصر. ولنا أن نتصور لو لم يتجه رجالات التصوف المغربي نحو إفريقيا السوداء، الغربية منها خاصة، ولو لم ينشطوا في إرساء قواعد الإسلام بها، فإن الاستعمار كان سيجد فيها حتماً الأرض الخلاء، ليرتاع فيها كما يشاء، وليقطع من المغرب العربي مجاله الحيوي وامتداده الطبيعي نحو الصحراء الكبرى. وإذا كان الاستعمار قد استطاع تحقيق بعض أهدافه تلك، فمن الأكيد أنه، كان يستطيع أكثر لو لم يجد مقاومة عميقة في نفوس الأفارقة رجال التصوف الذين انطلقوا في البدء من المغرب. وبذلك تكون التجربة الصوفية من أبرز العوامل التي وسعت من "المجال الجغرافي"، للثقافة المغربية، وعمقت الإشعاع الروحي المغربي، سواء في اتجاه أقطار الشمال الإفريقي أو نحو إفريقيا جنوب الصحراء^(٢).

إن العلم والشرف والولاية، مفاهيم وقيم سامية متكاملة يشد بعضها البعض، ومن توفرت فيه كلها كالإمام إدريس بابي مدينة فاس، كتب له التوفيق والسداد في توفير شروط السعادة الدنيوية والأبدية لرعيته، وهي السعادة والمثل العليا التي يعمل الشرفاء من مختلف فروع الدوحة النبوية الشريفة، ومعهم الصلحاء الممثلين في هذا الجمع المبارك، على إحيائها وبعثها إحياء لكتاب الله وسنة رسوله، درءاً للأخطار المحدقة بالأمة المحمدية، وحفاظاً على مقوماتها الحضارية وهويتنا الإسلامية، بفضل التوجيهات السديدة لعاهلنا المفدى، سليل العثرة النبوية الشريفة، عميد الشرفاء، وحامي الصلحاء والأولياء، دام له النصر والتأييد، آمين والحمد لله رب العالمين.

(١) من أجل معلومات أكثر تفصيلاً في الموضوع، يمكن الرجوع إلى: أحمد الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ٢٠٠٠، الجزءان الثاني والثالث على وجه الخصوص.

(٢) أحمد الأزمي، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية خلال القرن ١٩ (التراث الصوفي المشترك)، دار ما بعد الحداثة، ٢٠٠٩.

المولى إدريس... والفتح الأكبر...

• عبد الواحد أخريف (تطوان)

غَنَى عَلَى الْأَفْنَانِ فِي أَفْيَافِهِ طَيْرُ الْمُنَى يَبْدِيعُ لَحْنِ غِنَائِهِ
 بَيْنَ الْمَرْجِ الْخَضِرِ فِي جَنَابَتِهَا وَشَيْ الرِّبْعِ مُنْمَنٌ بِبَهَائِهِ
 عِنْدَ انْبِلَاجِ الْفَجْرِ يُرْسِلُ سَائِلًا بَسَمَتْ عُيُونُ الزَّهْرِ مِنْ لَأْلَائِهِ
 وَتَرْتَحَّتْ أَعْطَافُهُ فِي رَوْضِهِ نَشْوَانُ يَرْفُلُ فِي جَمِيلِ رُؤَائِهِ
 وَتَضَوَّعَتْ أَنْفَاسُهُ مُخْضَلَّةً بِالسَّلْسَبِيلِ الْعَذْبِ مِنْ أُنْدَائِهِ
 وَغَدَا خَرِيرُ الْمَاءِ لَحْنًا سَاحِرًا وَيُعِيدُهُ الْقُمْرِيُّ فِي عَلَيَّائِهِ
 تَتَجَاوَبُ الْأَلْحَانُ بَيْنَ مَعْرَدٍ فِي الْأَرْضِ غَنَى أَوْ فَسِيحِ فَضَائِهِ
 وَالْحَوُّ طَلَقَ ضَاحِكٍ مُسْتَبْشِرٍ لَمْ تَعْهَدْ الْأَيَّامُ حُسْنَ صَفَائِهِ
 وَالْقَلْبُ مَسْرُورٌ يُصَافِقُ هَائِمًا فِي فَرْحَةٍ تَشْفِيهِ مِنْ بُرَحَائِهِ
 وَالنَّفْسُ نَشْوَى مِنْ طَلَاقَةِ يَوْمِهَا تَسْتَقْبِلُ الْإِسْعَادَ يَوْمَ لِقَائِهِ
 وَعَلَى الثُّغُورِ مِنْ ابْتِسَامَاتِ الرُّضَا قَبَسُ الْهُدَى مُتَالِئٌ بِضُرِّيَّائِهِ
 وَالنَّاسُ قَدْ لَمَحُوا الشُّعَاعَ يُقُودُهُمْ نَحْوَ الْهُدَى، وَالْحَقُّ مِنْ إِحْيَائِهِ
 نَظَّمُوا الْمَوَاقِبَ شَاعِرِينَ بِحَادِثِ يُخَيِّى الْبِلَادَ بِخَيْرِهِ وَعَطَائِهِ

فَتَجَمَّعُوا كَعُقُودٍ ذُرٌّ نُظِمَتْ
وَقَفُّوا هُنَا مُسْتَقْبِلِينَ دَلِيلَهُمْ
فَإِذَا بـ «إِذْرِيسَ» الإِمَامِ وَقَدْ بَدَا
قَدْ جَاءَ يَحْمِلُ هَذِي دِينَ «مُحَمَّدٍ»
يَتْلُو مِنَ الْقُرْآنِ آيَا فَصَّلَتْ
وَتُرَدَّدُ الْأَصْوَاتُ قَوْلَ إِلَهْهَا
وَالْمُعْرَبِيُّ وَقَدْ تَفَتَّحَ قَلْبُهُ
إِنْ فَاتَهُ وَجْهَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
يَا وَاهِبًا عِزَّ الْحَيَاةِ لِلْأُمَّةِ
يَا نَافِحًا رُوحَ الْعُرُوبَةِ مُتْرَعًا
يَا مُنْقِذَ الْأَوْطَانِ مِنْ وَيْلَاتِهَا
يَا حَامِلَ الْإِسْلَامِ نَحْوَ رُبُوعِنَا
يَا رَأْسَ أَوَّلِ دَوْلَةٍ وَطَنِيَّةٍ
يَا فَارِسَ الْمِيدَانِ فِي سَاحِ الْوَعَى
يَا فَخْرَ مَغْرِبِنَا وَتَاجَ بِلَادِنَا
قَدْ كَانَ «مُعْرِبُنَا» شَتَاتًا وَرَعَتْ
وَالْبِرَّ بِرُّ الْأَقْحَاحِ مِنْ سُكَّانِهِ
وَطَلِيْعَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِتْنَةً

حَتَّى يَنَالُوا الْهَدْيَ مِنْ أَبْنَائِهِ
مُتَرَقِّينَ بُزُوعَ بَدْرِ سَمَائِهِ
مِنْهُ السَّنَا مُتَلَاحِمًا بِسَنَائِهِ
وَيُغِيثُ هَذَا الْقَطَرِ مِنْ ظِلْمَائِهِ
فَيَشَنَّفُ الْأَسْمَاعَ حُسْنُ أَدَائِهِ
فَيَسِيرُ مِلْءَ الْجَوِّ مِنْ أَصْدَائِهِ
وَتَغْلُغِلُ الْإِيمَانُ فِي أَحْشَائِهِ
فَلَقَدْ رَأَى فِي الْفَرْعِ بَعْضَ ضِيَائِهِ
عَشِيقَتَ مَعَانِي الْحَقِّ فِي أَسْمَائِهِ
بِفُؤَادِهِ وَفَعَالِهِ وَنِدَائِهِ
وَالْخَيْرُ وَالْإِحْسَانُ مِنْ إِسْدَائِهِ
وَالْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ مِنْ نَعْمَائِهِ
وَإِقَامَةُ الْبُنْيَانِ مِنْ إِنْشَائِهِ
وَمَلَائِكُ الرَّحْمَانِ مِنْ نُصْرَائِهِ
وَمَوْحِدَ الْأَجْنَاسِ تَحْتَ لَوَائِهِ
أَشْلَاؤُهُ بِالْكَفْرِ مِنْ أَبْنَائِهِ
كُلُّ بَدِينٍ عَامِلٌ لِبَقَائِهِ
الْفَرْدُ فِيهَا مُشْتَبِعٌ بِوَفَائِهِ

مِنْ عَهْدٍ «عُقْبَةَ نَافِعٍ» وَرِجَالِهِ
 ظَلَّتْ عَلَى عَهْدِ الْوَفَاءِ وَلَمْ تَزَلْ
 تَمْشِي عَلَى النَّهْجِ الْقَوِيمِ فَلَا تَرَى
 حَتَّى أَتَى التَّوْحِيدُ يَنْبُضُ مُشْرِقًا
 إِنْ كَانَ مَعْرِئَنَا... تَكَرَّرَ فَتْحُهُ
 فَلَأَنْتَ سَيِّدُ فَاتِحِيهِ حَقِيقَةً
 يَا سَاكِنَ الْجَبَلِ الْأَشْمِ تَحِيَّةً
 قَدْ قَامَ يَشْدُو فِي ضَرْيُحِكَ بُلْبُلًا
 وَيَرَى «وَلِيلِي» وَالْفُتُوحَ وَأَهْلَهَا
 وَيَرَى رَفِيقَكَ «رَاشِدًا» رَمَزَ الْوَفَا
 يَحْثُو عَلَى قَدَمَيْكَ إِذْ نَزَلَ الْقَضَا
 حَتَّى يُسَلِّمَهُ لِنَجْلِكَ رَاضِيًا
 مَوْلَايَ أَقْبَلْ مِنْ حَفِيدِكَ بَاقَةً
 جَاءَتْ عَلَى خَجَلٍ إِلَيْكَ هَدِيَّةً
 وَعَلَى ضَرْيُحِكَ مِنْ عِبَارَاتِ الرِّضَا
 مَا رَجَّعَ الْأَلْحَانَ فِي أَفْنَانِهِ
 أَوْ عَهْدٍ «مُوسَى»، فَاتِحِي أَنْحَائِهِ
 لِلْحَقِّ بَذْرَةَ نَبْتِهِ وَعَلَائِهِ
 إِلَّا وَجُوهًا أَشْرَقَتْ بِجَلَائِهِ
 «إِذْ رِيسُ» أَرْسَى شَامِيخَاتِ بِنَائِهِ
 وَمَضَتْ جِيُوشُ الْفَتْحِ فِي أَرْجَائِهِ
 شَهِدَتْ بِهَا الْأَجْيَالُ مِنْ أَبْنَائِهِ
 مِنْ عَاشِقٍ غَنَّى قَصِيدَ صَفَائِهِ
 ثَمَلًا بِحُسْنِ جَمَالِهِ وَرَوَائِهِ
 وَالنَّصْرُ يَسْطَعُ فِي ذُرَى أَجْوَائِهِ
 مَوْلَى الثَّبَاتِ مُزَوِّدًا بِذَكَائِهِ
 وَيَصُونُ عَهْدَكَ وَهُوَ مِنْ أَكْفَائِهِ
 أَنْعِمَ بِهِ وَبَصَابِرِهِ وَدَهَائِهِ!
 قَدْ صَاغَهَا مِنْ حُبِّهِ وَوَفَائِهِ
 تَرْجُو الْقَبُولَ فَلَفَّهَا بِرِدَائِهِ
 مِلءُ الْقَضَاءِ عَلَى اتِّسَاعِ سَمَائِهِ
 شَادٍ وَعَنَى مُنْشِدُ بَغَائِهِ

تحية المغرب

• الدكتور عبد الكريم اليافي

طال شوقي للقاء المغرب
بالبطولات وبالشعب الأبى
زاده فخراً تراث العرب
بلغت في المجد أعلى الرتب
نورها جلا سواد الغيب
بالعلاء، واهلاً لتلك الكتب
وغذاء لألوف الحقب
روحناً مشقة من يثرب
عزمننا في دفعه عزم نبى
ثم لاح الفجر خلف الحجب
باسم ينهض فوق السحب
إنهم من خير أم وأب
حكممة مخضلة بالأدب
في قديم الدهر أحلى نسب
شهب الآفاق تلو الشهب
إنهم أهل الندى والطرب
أنت رأس العز رأس الطلب
حاضر يرضى الضمير اليعربي
حاضر يوغر صدر الأجنبي
ورباه كالربيع المعجب
كل سهل ضاحك معشوشب
وينا جى يرتقال الذهبى

يا صد يقى لا تسل عن مأربي
مغرب الشمس نضار حافل
كلما فكر في الماضى امرؤ
نحن والمأزغ كنا أمة
مدنوا الغرب وكانوا شعلا
كم كتاب دونه شغفا
حبرها كان ضياء باهرا
عربي مأزغى كلنا
لا يرعك الوهن في حاضرنا
رب ليل قد طما إظلامه
وغد نأمله منتصرا
حبذا فاس ومن حل بها
جمعوا التاليد والطارف في
بين فاس ود مشق نسب
موكب الأجيال يتلو موكبا
حبذا مكناس مع أهلها
يارباط الفتاح يا ساح الوغى
مسرح الأبطال في الماضى وفي
معقل الأبطال في الماضى وفي
حبذا المغرب في أرجائه
من جبال تزحم الدجن ومن
تجد الليمون يزهى حالما



صاحب الموسم مع رئيس جامعة فاس



الدكتور احمد الازمي وصاحب الموسم وعبد الوهاب سبيويه وبعض الاصدقاء في فاس